اختيار «بيروت عاصمة عالمية للكتاب لعام ٢٠٠٩» فرض على اللبنانيين التعرف إلى تراثهم في عالم الكتاب عبر إبراز إصدارات في تاريخ الطباعة اللبنانية كشفَت مظاهر نشأة الثقافة والعلم في مجتمعنا الحديث.

بعد مراجعتنا مؤلفاتٍ بارزةً، نركزّ على كتاب «دليل بيروت» وهو تقويم «الإقبال» لسنة ١٣٢٧ هجرية/السنة الشرقية ١٣٢٤ – ١٣٢٥/السنة الغربية ١٩٠٩–١٩١٠»، وضعَه عبد الباسط الأنسي، وصدر عن مطبعة جريدة «الإقبال» في بيروت. وجاءت في الصفحة الأولى من هذا «التقويم» عبارة «السنة الأولى»، ما يعني نية واضعه إصدار تقويم دوري «في غرة محرم الحرام من كل سنة هجرية». إنما لم نجِدْ له أي طَبعة لسنوات لاحقة.

وهذا «التقويم» دليلُ مستوى تقدُّم عرفته بيروت منذ النصف الآخر من القرن التاسع عشر، بعد عشرين عامًا على صدور «دليل بيروت لعام ١٨٨٨»، وضعه أمين خوري «أول دليل لمدينة عربية» كما يحصل في الدول الغربية (خصصناه بمقالة في جريدة «النهار» – ٢٠٠٩/٩/٧).



أمام الطبية ١٩١٠

الأنسي ذو الفضل

تظهر في «تقويم» الأُنسي تطورات عرفتها بيروت بعد عشرين عامًا على صدور «الدليل الأول» ونهضة المدينة إبان السلطنة العثمانية بعد ترفيعها إلى مستوى «ولاية» عام ١٨٨٩ وتعاظم دورها حيال متصرفية جبل لبنان وسائر مناطق تحت الإدارة العثمانية المباشرة على أساس «الولايات».

واضع «التقويم»، عبد الباسط الأنسي، أسس عام ١٩٠٢ جريدة «الإقبال» التي ذكرها فيليب دي طرازي في كتابه «تاريخ الصحافة



البنك العثماني في المرفأ حوالي ١٩١٠

العربية» (الجزء الرابع صفحة ٩٠٨) أنها «ثالثة الصحف الإسلامية في بيروت، عاشت ٢٨ سنة ناهجةً خطة الصدق في إخبارها والاعتدال في مشربها. وقد أسف قراؤها في جميع البلدان لاحتجابها بعد هذا الشوط الطويل من حياتها. ولمنشئها الجليل الشيخ عبد الباسط الأنسي خدم وافرة تُذْكَر فتُشْكَر في نشر المعارف قولاً وعملاً».

وللأنسي مؤلفات عرفت طبعاتٍ عدةً منها «أبدع الأساليب في إنشاء الرسائل والمكاتيب» (٦٠٨ صفحات)، «تأسيس المباني في اللسان العثماني» (ترجمان تركي عربي – ٢٠٨ صفحات)، «هداية السائل إلى إنشاء الرسائل» (٢٠٨ صفحات)، «البسط الوافر في حساب التاجر السهل كتاب لتعليم الأعمال التجارية» (١٦٠ صفحة)، «العجالة المهمة في الجمع والطرح والضرب والقسمة وهو مختصر في الأعمال الأربعة» (٥٠ صفحة).

في مقدمة «التقويم» (صفحة ٢) ذكَر دافعه لهذا المشروع الذي رغب أن يكون سنويًا: «... لما كان الإنسان في هذه الدنيا مكلفًا بالخدمة العامة، والسعي وراء كل ما يعود على بني الوطن بالترقّي والعمران، وهذا الترقّي يكون بحسب قابلية الزمان، ... لاح لفكري أن أضع «دليلاً لبيروت» على عادة البلاد المتمدنة الراقية، ليعرف الناس شؤون تلك المدينة وأحوالها



باب ادريس والكبوشية ١٩١٠

وما يتعلق بها من العوائد العمرانية المهمة، وهي الضالَّة المنشودة إلى السكان والزوار وأهل البلاد النائية، حيث أن بيروت أصبحت الآن مطمح نظر كل ناظر ومسرح فكر كل غائب وحاضر...».

بهذا الهدف عمد جمَع عبد الباسط الأُنسي المعلومات وصنَّفها ونشرها في ٢٢٨ صفحة قطعًا وسطًا، و٦ صفحات دعايات وفق معايير تلك الأيام.

مضمونًا: الدليل من خمسة أقسام:



رأس بيروت حوالي سنة ١٩١٠

١. القسم الأول (من ص ٤ إلى ص ٥٦):

سرد فيها بإيجاز تاريخ وقائع مشهورة قبل التاريخ الهجري وبعده، مع نبذة قصيرة (صفحتان) عن تاريخ مدينة بيروت ووقائع تاريخية فيها (صفحة واحدة)، وإشارة إلى قواعد حسابية للسنوات والعلوم وأعراس الأوروبيين.

٢. القسم الثاني: (من ص ٥٧ إلى ص ٧٠):

منها لائحة سلاطين آل عثمان والحكْم الدستوري (عيد الحرية) والولايات العثمانية وثمانية عشر واليًا تقلَّدوا ولاية بيروت منذ تشكيلها «ولاية» عام ١٨٨٩ حتى ١٩٠٩.

في الأقسام الثلاثة الأخرى تفاصيل خاصة بمدينة بيروت من جميع النواحي، ومعلومات مفصلة عن الأوضاع السائدة فيها سياسيًّا واجتماعيًّا وتربويًّا واقتصاديًّا.

٣. القسم الثالث (من ص ٧١ إلى ص ٩٠):

نشأة ولاية بيروت عام ١٨٨٩ وجعْلها ولاية من الدرجة الأولى، ترتبط بها ثلاثة أقضية (صيدا وصور ومرجعيون) وأربعة ألوية (عكا وطرابلس ونابلس واللاذقية وأقضيتها). وأشار إلى الوالي القائم عام ١٩٠٩، ولائحة رؤساء دوائر الملكية، منهم نقيب الأشراف الشيخ عبد الرحمن الحوت، مدير الأوراق حسين الأحدب، مدير الأمور الأجنبية كميل إده، رئيس مهندس الولاية بشارة أفيدسيان الملقَّب بـ«المهندس»، رئيس مجلس البوليس أنيس رمضان، رؤساء دوائر العدلية (منهم محرر المقاولات رشيد فاخوري ومأمور الإجراء محمد اللبابيدي)، رئيس قلم محكمة الاستئناف

عبد الباسط فاخوري، ورئيس قلم البداية محمد الأنسي، المستنطق الأول بهجت ميقاتي. وسرد عن الثكنة العسكرية غربي المدينة، وثكنة السواري غربي حديقة الحرية في محلة برج الكشاف، والمستشفى العسكري بجانب الثكنة العسكرية (السراي اليوم)، ويتبين أن معظم الضباط كانوا عثمانيين فلم يورِدْ أسماء عائلتهم واكتفى بالاسم الأول لكل منهم. ومن الإدارات والمؤسسات القائمة ذكَر دائرة البلدية مشكَّلَة من سليم علي سلام رئيسًا للبلدية، رئيس القلم رشيد الصوفي، المحاسب حسن الناطور، المهندس نخله فيعاني، المفتش عمر الداعوق، كما ذكر المستشفى الحميدي وفيه الطبيبان سامح فاخوري ورفيق بيضون، ومن محكمة التجارة أمين أبو شعر ورئيس القلم عمر فاخوري، ومن دائرة الأوقاف المحاسب عبد اللطيف حمادة، ومن دائرة النفوس زكي دريان (مأمور بسابورط أي جواز سفر)، ومن دائرة النافعة بشارة المهندس (من كبار المهندسين، لعب دورًا بارزًا في تشيد المواقع الحكومية والجسور)، ومن دائرة المعارف المفتش محمد علي القباني والمكتب الإعدادي (أي المدرسة) «وهي تضم ١٠٠ تلميذ ليلي: منهم ٢٥ مجانًا و٧٥ بالأجرة السنوية، ونهارًا ١٥٠ تلميذًا لا يؤخذ منهم شيء»، والبنك الزراعي ودائرة التلغراف والبوسطة مع لائحة بالتعرفات والجمارك ودائرة الدخان (مديرها الفرنسي جورج دوقوصو واضع كتاب عن واقع صناعة الحرير في لبنان) والمفتش جورج مانسترسكي، ودائرة شركة مياه بيروت (مديرها الانكليزي مارتندال المشرف على هذا القطاع نحو ثلاثين عامًا). ودائرة السكك الحديدية (مشاور حقوق الإدارة ألبير قشوع)، وأورد المؤلف محطات السكة الحديدية بين بيروت وسائر المناطق مع أجرة النقل.



ساحة البرج سنة ١٩١٠

٤. القسم الرابع (من ص ٩١ إلى ص ١٢٢):

حوى معلومات عن «أهل العلم والفضل»، مع لائحة بأسماء أدباء وشعراء ومفكرين في بيروت ورؤساء طوائف روحيين وقناصل دول في بيروت مع أسماء المترجمين (بينهم إسبر شقير لإنكلترا، جرجي سرسق لألمانيا، حنا مدوَّر للنمسا، عزيز فيعاني لروسيا، قسطنطين الخوري



ساحة السور (عصور) ١٩١٠



ساحة الشهداء قرب أوتيل سنترال حوالي ١٩١٠

لأميركا، ابراهيم سرسق لإيران، ونخله عريضا لبلجيكا). وبين المحامين ووكلاء الدعاوى (عددهم ١٦) كان سليم قشوع وسليم الجارودي وخليل الحسامي وأنطوان شحيبر وجان نقاش والياس طراد واسكندر الدحداح ونعمان حبيش.

وذكر المؤلف أوضاع المساجد في بيروت (٣٢ مسجدًا وزاوية) والكنائس المسيحية (٥ للموارنة، ٨ للروم الأرثوذكس، ٤ للروم الكاثوليك، ٨ لسائر الطوائف). وذكَر الجمعيات العلمية (منها جمعية المقاصد برئاسة عبد الرحمن الحوت، الجامعة العثمانية برئاسة عبد القادر القباني، جمعية مآثر التربية برئاسة أحمد بيهم، لجنة التعليم الإسلامية برئاسة عبد الكريم أبو النصر) وجمعيات طائفة الروم الأرثوذكس والروم الكاثوليك والموارنة برئاسة مطران كل طائفة، و١٣ جمعية خيرية (منها الجمعية الخيرية الأرثوذكسية برئاسة ميشال سرسق، وزهرة الاحسان برئاسة إميلي سرسق، وإخوة الفقراء برئاسة يوسف الهاني، والخيرية الإنجيلية برئاسة خليل سركيس صاحب «لسان الحال» ومار منصور برئاسة أنطوان شحيبر.



شارع غورو في الجميزة حوالي ١٩١٠

ومن المدارس ذكَر مدرسة الصنائع مكتب التجارة الحميدي، ١٣ مدرسة إسلامية (منها المدرسة الإعدادية، مدارس المقاصد، المدرسة الوطنية،...)، ٥ مدارس مارونية (منها مدرسة الحكمة، والسيّدة، ومار مارون)، ٦ مدارس أرثوذكسية (منها مدرسة السلام والثلاثة أقمار)، مدرستين لطائفة الروم الكاثوليك (البطريركية والمخلص)، ٩ مدارس أخرى لسائر الطوائف (منها المدرسة الكاثوليكية للآباء اليسوعيين، ومدرسة الكلية السورية الإنجيلية للأميركان – الجامعة الأميركية لاحقًا - والفرير،...). ومن مدارس البنات ذكر ١٠ مدارس (منها مدرسة زهرة الإحسان للروم الأرثوذكس ومدرسة البنات لراهبات الناصرة في الأشرفية، ومدارس المقاصد،...) وأشار إلى ٨ مدارس انكليزية تأسست بهمَّة السيدة طومسن.

من الأطباء سرد عشرين (بينهم دبران وغراهام وبوست والياس شكراللّه وعبد الرحمن الأنسي وسامح فاخوري وأنطوان نقاش، ...) وذكَر أطباء العيون الخمسة (بينهم الدكتور شاكر الخوري صاحب كتاب «مجمع المسرات»)، وأطباء الأسنان التسعة (بينهم نجيب فياض وسليم حبيب). وذكر الصيدليات الست عشرة (بينها الصيدلية الشرقية لبطرس شكراللّه، والعثمانية لاسكندر الحلو والد الرئيس شارل الحلو، والفرنسية لجرجس شكراللّه والوطنية لأمين فاخوري والحكمة لعبد القادر الطيارة). وذكر الأئمة والمختارين الواحد والعشرين موزعين على أحياء بيروت (بينهم الأئمة ابراهيم المجذوب وعبداللّه خالد وعبد الغني البنداق وتوفيق الهبري، والمختارون سليم طبارة وعبد القادر الشعار ويوسف قرنفل)، وذكر المختارين الأحد عشر لباقي الطوائف (بينهم الياس ربيز وجبران الحداد وجرجي قشوع).

وكان في بيروت ٧ مستشفيات منها العسكري العثماني والحميدي والبروسياني والفرنساوي وراهبات اللعازارية والروم الأرثوذكس. وذكَر

الحمامات السبعة (بينها حمَّام النزهة والقشلة وحمامات أخرى على شاطئ البحر في محلة الزيتونة).

٥. القسم الخامس (من ص ١٢٣ إلى ص ٢٢٨):

فيه أسماء الأعضاء المبعوثين المنتخَبين عن ولاية بيروت للمشاركة في اجتماعات «مجلس المبعوثان» في اسطنبول (رضا الصلح عن لواء بيروت وصيدا، سليمان البستاني عن صور ومرجعيون)، وتفاصيل عن أسواق بيروت (منها البزركان، الحدَّادين، سرسق، الجَميل، الطويلة، أياس،...)، وأسماء الجرائد اليومية السبع («لسان الحال» لخليل سركيس، «الاتحاد العثماني» لأحمد طبارة، «الوطن» لشبلي ملاَّط، «حديقة الأخبار» لحنا الخوري)، والجرائد الأسبوعية الثماني («بيروت» الرسمية، «ثمرات الفنون» لعبد القادر القباني»، «الإقبال» لعبد الباسط الأنسي مؤلف «الدليل»، «المصباح» لجان نقاش، «البشير» للآباء اليسوعيين، «البرق» لبشارة الخوري، «النشرة الأسبوعية» لهنري جسب)، ومجلات شهرية («المشرق» للآباء اليسوعيين، «الطبيب» لإسكندر البارودي) ونصف الشهرية («روضة المعارف» لمحمد علي القباني). ومن المطابع العشرة ذكر مطبعة الأميركان والعمومية والعلمية ليوسف صادر والاجتهاد والفنون، والغريب أنه أغفل ذكر المطبعة الكاثوليكية للآباء اليسوعيين. وذكَر المكتبات الإحدى عشرة التي تميّز نهضة بيروت الثقافية والتربوية (بينها «المكتبة الأنسية» لعبد الباسط الأنسي، و«العمومية» لسليم صادر، و«الجامعة» لخليل الخوري، و«المعارف» لموسى صفير.

ومع التطور الاقتصادي في بيروت ازداد عدد المصارف إلى ٢٢ مصرفًا، بينها البنك العثماني، طراد، جبيلي، فرعون وشيحا (لا يزال حتى اليوم) وصباغ وفارحي وطرَّاب والشقَّال.



طريق الشام ١٩١٠

ومن المهن في بيروت: تجار القومسيون والبضائع الأوروبية والأجواخ والأقمشة الوطنية والألبسة الخالصة والحرير ومال القبَّان والحبوب والقطن والحديد والخشب والدهان والعطارين والمطابع والمربيات والحلويات والحلاوة والجوهريين والساعاتيين ومصوّرو اليد (داود القرم) والمصوِّرون ومعامل الموبيليا والخياطون (العربي والإفرنجي) والحلاقون والحدادون والبناؤون والأحذية والفنادق (٢١ فندقًا) والقهاوي المشهورة (١٢، منها قهوة الحاج داود) والأفران (العربية والإفرنجية) والمسارح («زهرة سوريا»، «المسرح الجديد») والمعامل الوطنية (١٨ معملاً). وعرض متنزّهات بيروت وضواحيها (منها حديقة الحرية والحرج والمنارة وأنطلياس وضبيِّه وفرن الشباك والحازمية). وخص دليله بمعلومات عملية عن إدارات النقل البحري وحركة البواخر (١٥ شركة) وهي كانت الوسيلة الرئيسة للنقل أيامئذٍ ما يبين أهميتها وضرورة معرفة أوقات السفر للمواطنين.



منارة بيروت القديمة في منطقة رأس بيروت
حوالي سنة ١٩١٠

خاتمة

أهمية هذا «الدليل» في المعلومات عن نشأة بيروت وتطورها وهي في أوج ازدهارها، وما ورد فيه من معلومات ونشاط لبيروت عصرئذٍ ودور الأشخاص والعائلات والمؤسسات لتأمين نهضتها، ما يشكل حافزًا للاطّلاع وتعزيز الرؤية والالتزام بمستقبل هذه المدينة/المنارة على الشاطئ الشرقي للبحر المتوسط.

*) «مرايا التراث» تشكُر جمعية «تُراثنا بيروت» على تزويدنا بالصوَر الواردة في هذا النص.